انتقاء الالفاظ

(تابع ما قبلهُ)

عندئذٍ قال واحدٌ من الحاضرين سمعت بيتين مُدح بهما احد الامراء من راعٍ وصفهُ فيهما بحفظ العهود والكرم والصبر على الشدائد وصحّة العزيمة في مقارعتها ولعلهما بقبح التعبير فيهما يدخلان في هذا الباب والبيتان هما

وانت ككلبٍ يحفظ الوداد وانت كدلوٍ كثير الزروب
وتصبر في الخطب صبر الحمارِ وتشبه تيساً بقرع الخطوبِ

قال آخر ان هذه المعاني جميلة والغاية حسنة محمودة الاّ ان وضع الممدوح بين الكلب والحمار والتيس يخيّل انهُ بغلٌ او بعير

ثم قال آخر وكان مشتغلاً بالتقليب في ديوان المتنبي : ها قد عثرت على البيت الذي تمثلت بهِ للمتنبي وهو امعفّر الليث الخ فلماذا قلت الليث المهصور على انها هنا الليث الهزبر وهكذا كنت احفظها الاّ انني لم أرد الاعتراض الاّ بعد التحقيق

قلت نعم ان الاصل كما تقول الاّ ان كراهتي لهذه اللفظة جعلتني استبدلها بالمهصور وامثال هذه اللفظة لا يروق استعمالها مهما حفّت بالقرائن والدلائل التي يقصد بها صرف المعنى عمّا يذهب اليهِ الذهن عند سماعهِ

والالفاظ المقرونة عند العامّة بمعنى قبيح غير قليلة في اللغة على حين ان معانيها اللغوية لا غبار عليها وهي يحظر ايرادها في الكلام في اكثر المعارض وان تُسوغ بها في البعض الآخر

فقال ماذا تريد بالمعارض قلت اريد ماهية السامعين والقراء قال او يوجب ذلك فرقاً قلت نعم قد يختلف تقدير الكلام باختلاف ذوق السامع وطبيعتهِ من العلم وتذكر الحادثة يوم وقف رواة الشعراء في باب السيدة سكينة بنت الحسين اذ قالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول

طرقتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

وايُّ ساعةٍ احلى من الزيارة بالطروق قبّح الله صاحبك وقبح شعرهُ فهلاّ قال

طرقتكَ صائدة القلوب وانَّ ذا وقت الزيارة فادخلي بسلامِ

ثمّ لما وقف الشعراء في باب عمر بن عبد العزيز يستأذنون وجد لكل واحدٍ منهم عيوباً

ومنعهم عن ان يطأوا لهُ بساطًا الى ان وصل الي جرير فقال أليس هو القائل طرقتك الخ ادخلوهُ عليَّ فانهُ عنيف القلب واللسان . نتأمل كيف لاجل البيت الواحد قد أكرم صاحبهُ مرَّةً واهين اخرى فمن الناس من يطرب للفظ تجرَّعهُ اذن الآخر ولا تسيغهُ . فقال ذكر البيانيون ايضًا ان المعاضلة مكروهة في الكلام وعنوا بها تراكب الحروف من شكل واحد في العبارة ومثلوا عليها بابياتٍ كثيرة مثل بيت المتنبي

تقلقلت بالهم الذي قلقل القوى فلاقل همٍّ كلهنَّ قلاقلُ

الاَّ انهم لم يضعوا فارقًا بين الحروف التي يكرهُ تكرارها وعندي ان الحروف الرقيقة اذا كررت لا باس بها بل هي تزيد الكلام رونقًا وطلاوةً مثل "بسم القدوس نستفتح وباسعادهِ نستنجح سجية سيدنا السلطان حرمت نفسهُ الخ" ومثل حرف الحاء في قولنا "ويحمي حوزةَ الحق الصحيح" وهو من البديع اللفظي المحبوب

قلت لا ارى كما ترى في هذا الامر لان تكرار الحرف الواحد وان كان رقيقًا يسهل التلفظ بهِ يشغل السامع بالصناعة اللفظية ويصرف ذهنهُ عن المعنى فضلاً عن انهُ يكون في تكرار الحرف الواحد التزام يشوش المعنى ويجعلهُ في كثير من المواقع ركيكًا سخيفًا واللسان يستثقل تكرار الحرف الواحد مهما كان ذلك الحرف رقيقًا مثل بيت اعشى قيس

وقد غدوتُ الى الحانوت يتبعني شاوٍ مِشَلٌّ شلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

قال احد الحاضرين : لو كان ما ذكرتم عن الالفاظ عيوبًا لما وقع بهِ نوابغ الكتاب والشعراء وانا اقول ان كل ما تمثلتم بهِ من اقوالهم وحسبتموهُ عليهم هفوات لهُ عندهم مسوّغات لولاها ما ارتكبوهُ

قلت ان تحمل الاعذار لهم ليس بالامر الشاقّ غير ان ذلك لا يتفق مع الحقيقة ولا يخرج عن حد التمويه ومغالطة النفس وقالت الحكماء لكل عالم هفوة والكمال صفة الحيَّة لا يستطيع الانسان بلوغها . قال احد العلماء "تلخيص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص" وان التحذلق دليل الضعف والتقصير في شأو الفصاحة لان معناها الظهور والبيان لا الغموض والخفاء وكل من اغرب في كلامهِ يخرج عن حدها وانت لو راجعت كتب الادب وتعهدت العبارات الحاوية الغريب منها لوجدت اكثر معانيها ركيكة مبتذلة لا شيء فيها من التخيلات السامية والمرامي البعيدة . وغالب ما اطلعت عليهِ من العبارات او الابيات المشوَّهة بالغريب وجدت المعاني فيهِ تافهة والفكر مملولاً سقيمًا واليك بعض الامثال نوردها استئناسًا قال امرؤ القيس واغرب

مسحٍ اذا بالسابحات على الوقى أثرن الغبار بالكديد المركّلِ

ومعناهُ انّ الجواد الذي يصفهُ لا يتعب كسائر الخيل وهذا المعنى المبذول الصغير لا يتحصل منهُ الاّ بعد اعنات الرويّة والتكهن الكثير كما يتضح بالمراجعة . ومثلهُ قول طرفة

فرّت كهاةٌ ذات خيفٍ جلالةٌ عقيلة شيخٍ كالوبيل يلندد

يعني مرت ناقةٌ سمينة ضرعها ذو جلد تخصُّ شيخًا عدوًّا يشبه العصا وهو معنى ركيك بارد وابرد منهُ قولهُ

أمونٌ كالواح الاران نصأتها على لاحب كأنهُ ظهر برجدِ

وتحرير المعنى اني ضربت ناقتي بالعصا . فاكثر الكلام المغلق لا يكون وراءهُ معنى كبير لان من كانت معانيهِ سخيفة وافكارهُ ضعيفة يحاول اغلاقها والتعمية فيها بالفاظٍ ثقيلة وكلام غريب ليستر الركاكة كالذي يترعيوب جسدهِ بثيابهِ ليحجبها عن الابصار اما من كان معناهُ ساميًا جليلاً فيلجُ في ايضاحهِ باسهل العبارات ويرغب في بسطهِ باسلس الكلام حتى لا يفوت فهمهُ ايًّا كان من القراء ولذلك ترى جميع الابيات الحكمية التي ارسلت امثالاً والقطع التي التقطتها الآذان واحفوتها الاذهان من منثورٍ ومنظوم لا شيء فيها من الغريب النافر بل جميع الفاظها طيبة سائغة

وهذا الحكم يمشي على المأثور عن فصحاء الجاهلية كما يمشي على المحفوظ من كتابات بلغاء الاسلام . ومن العجيب انك عند ما تراجع القصائد الطويلة لشعراء الجاهلية تجد منها الابيات المأثورة لحكمتها والمحفوظة لبلاغتها كانها واحات مخصبة تحيط بها الرمضاء مثل قولهِ في لاميّة العرب

لعمرك ما في الارض ضيق على امرئٍ سعى راغبًا او راهبًا وهو يعقلُ

ولي دونكم اهلون سيدٌ عملّسٌ وارقطُ زهلولٌ وعرفاء جيألُ

كأن البيتين ليسا من لغة واحدةٍ . وكثير من ابيات القصيدة على حدّ البيت الثاني الاّ اننا لا نرى الكتّاب والخطباء قديمًا وحديثًا يتمثلون الاّ بما كان منها على حدّ البيت الاول من شرف المعنى ورقّة اللفظ

قال احدهم : سمعت من بعض الاصحاب ان الافرنج اليوم لا يفهمون الكتب المكتوبة في لغتهم منذ خمس مئة سنة فهل ذلك صحيح وما سببهُ

قلت : نعم ان ذلك صحيح انما تلك الكتب التي أُلّفت منذ خمس مئة سنة والتي تشير اليها ليست مكتوبة في لغتهم بل في لغة اسلافهم الذين عاشوا في ذلك العهد وقد تغيّرت

وتبدلت احوالها حتى صارت لغة اليوم بعيدة عن لغة ذلك الزمان وهم لا يحسبون انفسهم مقيدين بما استعملهُ اسلافهم من الكلام وعندهم ان كل جيل لهُ الخيار في الالفاظ التي انتهت اليهِ من الجيل الذي سبقهُ ان ينتقي منها ما يحتاج اليهِ وينبذ ما لا يروق لهُ استعمالهُ وكل لفظ مرَّ عليهِ نحو خمسين سنة وهو خارج عن استعمال الكتَّاب المشهود لهم بحسن الذوق يصير حريًّا بان يحسب مهجورًا خارجًا من دائرة اللغة وحجتهم ان عدم استعمال الكلمة دليل على الاستغناء عنها اما بفقدان الاحوال التي كانت تدعو اليها واما بالاستعاضة عنها بما هو خير منها للدلالة واذ ذاك لا يجوز الرجوع اليها الاَّ عند رجوع الاحوال التي وضعت لاجلها مشفوعةً بشهادة كاتب بليغ موثوق بحسن اختيارهِ

وكل لفظةٍ هجرها الكتَّاب البلغاء مئة سنة ولم يوردوها في كتاباتهم لا يبقى لها حق بالاستعمال بعد هذه المدة فما قولك بالالفاظ الثقيلة النافرة الوحشية التي مرَّ عليها اكثر من الف سنة ولم ترد في سطور كاتب بليغ وان وردت فلاغراض بيانية بعيدة عما نحن فيهِ افنحسبها بعدُ من لغتنا ام نرمي بها عرض الحائط ونحذفها من معجم الاستعمال. كثير من الاسماء التي نجدها اليوم في الامَّهات بادت مسمياتها او تبدَّلت احوالها والاغراض منها واطلق عليها اسماء جديدة معروفة بها فايراد مثل هذه الكلمات في كتابات اليوم داعٍ الى التشويش وقاضٍ على المعنى بالتقلقل

فقال آخر: قرأت ان ابا زيد الانصاري كان مرَّةً واقفًا بالقرب من اولادٍ يلعبون وكلما سمع منهم لفظةً جديدة يسألهم عما يريدون بها ليحفظ بمعناها فمرَّ بهِ شيخ جليل ورآهُ على هذه الحال مكبًّا على الالتقاط فقال لهُ "أعن هؤلاء المجانين تأخذ اللغة" فماذا تستنتج من هذه القصة؟

قلت اما استنتجتَ انت منها شيئًا قال كلاَّ قلت اما انا فاحسب قولهُ هذا دليلاً على ان لغة الاولاد والرعاع كانت غير اللغة البليغة التي تحكى في المواضع الجدية وان العرب كان لهم ايام جاهليتهم لغة عاميَّة مثلما لنا اليوم يتكلمها اطفالهم وجهلاؤهم ويتسلَّى بها كبراؤهم في اوقات المزاح . مثال ذلك : ينقل عنهم انهم قالوا للكاذب مكذبان وهذه الصيغة نادرة في كلامهم الفصيح والذي اظنهُ ان الاولاد كانوا عند ما يكذب احدهم لا يكتفون بان يقولوا لهُ كاذب او كذاب فاضافوا الى المادة الاصلية حروفًا تطول بها الكلمة ويمتدُّ الصوت عند ما يقولون لهُ "يا مكذبان"

ويحتمل ايضًا ان ولدًا واحدًا قالها مرَّةً عفوًا فسمعها منهُ ابو زيد او الاصمعي او غيرهما

من الذين تجرّوا جمع اللغة ودوّنها بين لقطهِ حاسبًا اياها غنيمة ثمينة . عند الانكليز اليوم لغة يسمونها Slang يحكيها ادباؤهم في اوقات المزاح وفيها يستعملون الالفاظ لغير معانيها التي وضعت لها في اللغة او يجيئون بالفاظ جديدة مرتجلة يفهمونها من بعضهم بما يعهدونهُ من القرائن والاحوال السابقة بين المتخاطبين واظن ان الالفاظ القبيحة والمستهجنة في لغتنا أُخذت من مصادر كهذه وجامعوها كانوا يتسابقون ليأتي واحدهم بشيء جديد لم يسمعهُ غيرهُ فكانوا ميالين لقبول كل ما سمعوا على علاتهِ . ويؤيد صحة هذا الرأي ما نراهُ في اللغة من كثرة الكلمات البذيئة مما يتعلق بما لا يستحسن التصريح بذكرهِ والراجح ان الشبان او غيرهم كانوا اذا ارادوا هاتيك المعاني يأنفون من استعمال الالفاظ الصريحة الموضوعة لها فيكنون عنها بكلمات يهون التلفظ بها مستخدمة في معانٍ غير التي يريدون انما يفهمون المراد منها بالامائر والاشارات ولو لا كراهة التطويل في هذا الباب لكنت اجيء عليهِ بالادلة والشواهد مما هو جارٍ في هذه الايام عند العرب والافرنج . فيتحصل معنا انهُ ليس كل ما جاء في المعاجم عربيًّا فصيحًا بل كثير منهُ لقط من غير مظانّ الالفاظ واللغة اليوم منتقرة الى التعديل بالحذف كما هي منتقرة الى الاضافة وعسى علماء اللغة يشتغلون بوضع معجم جديد يطرحون منهُ كل ما يرونهُ من هذا القبيل وهو اكثر من ربع المنتهي الينا

ثمّ قال آخر : لا باس بهذه الشروط التي تذكرونها لحسن الالفاظ فاقل فوائدها انها ترشد الكاتب وتنير ذهنهُ الى ما يحسن استعمالهُ غير اني احسب القواعد والضوابط غير وافية بالغرض ولا يمكننا ان نضع دليلاً يهدي الكاتب في جميع المواقف الى الكلمات اللائقة ويدفعهُ عن المكروهة ولا ارى احسن من قول ابن الاثير في هذا المعنى (ثم جاء بالمثل السائر وقرأ) اعلم ان مدار علم البيان هو حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم وهذا التعليم وان كان في ما يلقيهِ اليك استاذا واذا سألت عما ينفع بهِ في فنهِ قيل لك هذا فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعًا واهدى بصرًا وسمعًا وهما يريانك الخبر عيانًا ويجعلان عسرك في القول امكانًا وكل جارحة منك قلبًا ولسانًا فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك وما مثّلي في ما مهدتهُ لك من هذه الطريق الاّ كمثل من طبع لك سيفًا ووضعهُ في يمينك لتقاتل بهِ وليس عليهِ ان يخلق لك قلبًا فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايتهُ ماكلٌ ماشيةٍ بالرحل شملالُ

قلت هذه حقيقة لا يرتاب في صحتها فقد قالوا " اختيار المرء قطعةٌ من عقلهِ " وذكر احدهم عدة اشياء تدلُّ على عقول اصحابها منها ان الكلام يدلُّ على عقل المتكلم وقال الشاعر

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

وصاحب الذوق السليم والفطرة البيانية اذا كان لهُ معرفة بالالفاظ ووقوف على معانيها الصحيحة يكون الكلام لديهِ مثل المخاريق بايدي اللاعبين يصرفهُ كيف شاء وشاءت البلاغة فيجيء بالالفاظ في مواضعها المستحكمة وتظهر لك في جملها ارسى من الجبال بحيث لا يمكن تبديلها بما هو احسن منها . تراهُ اذا افتخر يجيء بالالفاظ الجزلة الفخيمة التي تشعر معها بالقوة وتنبه في فكرك مراكز الشدَّة واذا تغزل يسمعك الكلام الرقيق اللطيف الذي يسترق عواطفك وينفرد بخيالاتك صاعداً بها الى مثال الجمال واذا رثى يورد من الالفاظ ذات الرنات الشجية ما يسكب نفسك ويهيج حزنك واورد لك مثالاً من شعر محمود سامي باشا قال مفتخراً

سواي بتحنان الاغاريد يطربُ وغيريَ باللذاتِ يلهو ويعجبُ
وما انا ممَّن تأسر الخمرُ لبَّهُ ويملك سمعيهِ البراعُ المثقَّب
ولكن اخوهم إذا ما ترجَّحت بهِ سورةٌ نحو العلا راح يدأَبُ
نفى النوم عن عينيهِ نفس ابيَّة لها بين اطراف الاسنة مطلبُ
بعيد مناط الهمّ فالغرب مشرقٌ اذا ما رمى عينيهِ والشرق مغربُ
لهُ غدواتٌ يتبع الوحش ظلَّها وتغدو على آثارها الطير تنصب
ومن تكن العلياء همة نفسهِ فكلُّ النسيم يلقاهُ فيها محبَّبُ
اذا انا لم اعطِ المكارم حقها فلا عزَّني خالٌ ولا ضمني ابُ
ولا حملت درعي كميتٌ طمرَّةٌ ولا دار في كفي سنان مذرَّب
خلقت عيوفاً لا ارى لابن حرَّةٍ لديَّ يدًا اغضي لها حين يغضبُ
فلست لامرٍ لم يكن متوقعاً ولست على شيء مضى اتعتَّبُ
اسير على نهج يرى الناس غيرهُ لكل امرىء في ما يحاول مذهبُ
وبحر من الهيجاء خضتُ ثجاجهُ ولا عاصم الاَّ الصفيح المشطَّبُ
تظلُّ بهِ حمر المنايا وسودها حواسر في الوانها تتقلبُ
توسطتهُ والخيل بالخيل تلتقي ويبض الظبي في الهام تبدو وتغربُ
فما زلت حتى بيَّن الكرُّ موقفي لدى ساعةٍ فيها العقول تغيَّبُ

الى آخر القصيدة على هذا النمط من سموّ المعاني وحسن التعبير وفخامة الالفاظ . وقد اختار لمعانيهِ من الكلمات اجزل ما يوجد في اللغة فجاء كلامهُ غاية في الفصاحة ومطمحاً في البلاغة . ثم انظر كيف تختلف الفاظهُ وتتبدل حروفهُ عند ما يختلف الموضوع قال يصف الحمام

فما راعنا الاَّ حفيف حمائمٍ لها بين اطراف الغصون هديرُ
نواعم لا يعرفن بؤس معيشةٍ ولا دائرات الدهر كيف تدورُ
كأنَّ على اعطافها من حبيكها تمائمَ لم تعقد لهنَّ سيورُ
خوارج من ايكٍ دواخل غيرهِ زهاهنَّ ظلٌّ سابغٌ وغديرُ
اذا غازلتها الشمس رفَّت كأنما على صفحتيها سندسٌ وحريرُ

فهو في هذا المقام يمثل لك الحمام باطلي الالفاظ وارقها وهذا التلاعب والتنقل في انتقاء الكلام بحسب مقتضى المعاني هو حدُّ الجمال ومنتهى حسن البيان

فقال كنت مرَّة في مجلس مع فريق من الادباء فعرض لي جملة استعملت فيها كلمة الاكفاء فانتقض عليَّ بعضهم بان هذه اللفظة من الغريب الذي لا يروق استعمالهُ أليس في قولهِ هذا مبالغة وتطرف في ما هو الغريب ؟

قلتُ ان الفريق الذين كنتَ معهم ليسوا من الادباء لانهم لو كانوا شمُّوا رائحة اللغة ما اعترضوا على الاكفاء وهذا هو الطرف الآخر من الركاكات التي وصلنا اليها وقد كاد الداء بها يصير عضالاً لولا ان قام اليهِ فريقٌ من ادباء هذا الجيل الذين عمروا ديار اللغة بعد عفائها. ونحن الآن في زمانٍ تضيق بهِ الدنيا على محترف حرفة الادب ولا رجاء يتعلَّل بهِ طالب اللغة للارتزاق ومهما اكثر الاديب من تقييد شواردها واصطياد اوابدها وحشد في عقلهِ من العبارات البليغة والكلام الفصيح تبقى سبل الاجتراح ضيقة عليهِ ومنافذ التعيُّش مسدودة في وجههِ . ولذلك ترى غالب طالبي العلم راغبين عن هذه الخطة منهُ ضانين باوقاتهم عن بذلها في قراءة كتب الادب وحفظ الكلام الفصيح . تجد اكثر شبان هذا الزمان الذين تخرَّجوا في المدارس العالية قد صرفوا جلَّ اهتمامهم في تحصيل اللغات الاجنبية ودرس آداب لغة الافرنج فيشبون على الذوق الاوروبي لا يعرفون من العربية الاَّ ما كان مبذولاً من الكلام الذي يقرأونهُ في الصحف اليومية او يسمعونهُ من امثالهم فاذا عرض لهم يوماً ان سمعوا او قرأوا كلاماً لا يفهمونهُ رموا كاتبهُ بالتحذلق والتقعُّر وحسبوهُ من غريب الالفاظ التي يحظر استعمالها . ولو اقتصر الكتاب على ايراد ما يعرف امثال هؤلاء من الالفاظ لضاقت عليهم دائرة اللغة وتعذرت مسالك التعبير . وداء الركاكة هذا اشدُّ من داء التحذلق وافشى منهُ في هذا الزمان وارى الكلام فيهِ جديرًا بالافاضة فاقف عنهُ الآن راجيًا ان اعود اليهِ في فرصة اخرى

فارس الخوري